نظرة لمعركة عين جالوت

وقتل فائر التتار كتبغا فى ٢٥ رمضان ٦٥٨ هجرية

للأستاذ أحمد رمزى

[ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين] قرآن كريم

قلت مرة لصاحب من إخواننا الذين يغلب عليهم التشاؤم : إن فى الكون قوات طبيعية هائمة لا تلبث أن تصيب الرجل الذى اختارته العناية لعمل عظيم ، فستفيق من غشيته متنبهاً يقبض على تلك القوى الضائعة ويجمعها ويحشدها ويحركها بقودها ببصيرته وعزيمته وجرأته ، ليغير معالم الأشياء فيخلق من الجمود حركة ومن الخمود حياة ومن التسليم أملا ، ويحول مجرى التاريخ ليكتبه كما يشاء . هؤلاء الرجال الأفذاذ كثيرون فى تاريخ الإسلام ، كانوا كالصخور الصلبة التى تواجه السيول ، وكانوا كالسدود الضخمة التى تحول مسير المياه إلى جهات ونواح غير التى كانت تقصدها بدفعتها الأولى » .

« وأعرف فى تاريخ مصر العربية معارك كثيرة ومواقف خالدة كانت كالسدود العالية تصد حوادث الزمن وتقارع نكبات الدهر لتتغلب عليها : ولكنى أعرف منها معركتين فاصلتين يجب أن يعرفهما كل واحد منا لأنهما مفخرة لنا ولآبائنا ولأجدادنا ، وقعت كل منهما فى أرض فلسطين الشهيدة ، فى الجزء الشمالى منها أى على مقربة من بحيرة طبرية ، تلك البحيرة التى أعدها وماحولها بقعة من أجمل بقاع الأرض ، أما أولى المعركتين فهى معركة حطين ، وأما الأخرى فهى معركة عين جالوت . كان بطل الأولى سلطاننا صلاح الدين وكان صاحب الأخرى سلطاننا الشهيد المظفر قطز ، فى الأولى تحطم ملك أورشليم وفى الأخرى تحطمت أطماع هولاكو فى فتح مصر ، وفى الأولى ظهرت مزايا جند مصر وعسكرها على فرسان أوروبا ، وفى الأخرى انتهت خرافة العهد

ن تعبر عن أشباه هذه الأسباب .

فالدواعى التى تلجىء المشترع إلى إباحة تعدد الزوجات عند لضرورة التى تسوغه أخطر جدا من هذه الموانع التى تساق لحظره على النحو الذى أجملناه فيما تقدم . فهذه الزوجة التى يخشى عليها لكاتب الأخير من وساوس الغيرة هل يظنها تنجو من هذه لوساوس إذا كانت السهرة التى يغيب فيها زوجها قد انقضت فى الحانة أو الماخور أو فى الأندية التى لا فرق بينها وبين الحانات والمواخير ؟ أو هل تنجو من هذه الوساوس إذا كانت السهرة مع زوجة رجل آخر يخونها فى تلك الساعة كما تخونه لأنهم جميعا لا يستسهلون الطلاق ؟

إن الذين يبيحون تعدد الزوجات لا يبيحونه لأنه حسنة مشتهاة ولا لأنهم يفضلونه على الاكتفاء بالزوجة الواحدة متى تمت شروط الوفاق والعشرة الدائمة بين الزوجين ، ولكنهم يبيحونه لأن السيئات التى تبيحها الحضارة أبغض منه وأولى بالمحاربة والانكار ، ويعلمون أن كرامة الزوجة التى تشاركها فى رجلها زوجة أخرى أعز وأوفر من كرامة الخليلة التى يعترف بها المجتمعات الأوربية والإمريكية ولا تحسب لها حسابا فى الشرائع والقوانين غير حساب التهاون والاغضاء .

ولعل هذه الأجوبة التى قدمناها لا تشتمل على جواب هو أولى بالتدبر وإطالة الروية من جواب الفتاة التى قالت إن النساء لا يرفضن المشاركة فى الرجل الوسيم القسيم وإنهن إذا لغطن بحديث هذا الزواج فأغلب الظن أنهن يلغطن من الغيرة لا من الإنكار .

فهذه فتاة من بنات العصر الحديث فى القارة الامريكية موطن الحرية النسائية التى جاوزت جميع الحدود ، كشفت عن دخيلة شعورها فإذا هو ينم على حقيقة المانع النفسانى الذى يجنح بالمرأة إلى التأفف من المشاركة فى المعيشة الزوجية ، وإذا هو مسألة استحسان للزوج الذى يستحق هذه المشاركة لا مسألة كرامة أو مسألة من مسائل العقيدة والروح .

ونحسب أن الأجوبة الصريحة التى من هذا القبيل أجدى من الفصول المنمقة والمباحث المتعمقة فى الإبانة عن مركز المرأة الصحيح من مسائل الزواج والطلاق .

عباس محمود العقاد

من أن جيش المغول لا يغلب ، فغلب وهزم وتشتت شمله ، وظهر أن الدماء التي تجري في عروق الآباء والأجداد ، أقوى وأمتن وأثبت من الدماء التي تجري في عروق فرسان أوربا وزمازمها من الاستبار[1] والداويّة ، وعلم الناس والعالم بأكمله والأجيال السالفة واللاحقة أن صلاح الدين وقطز هما من رجال الله » .

فاذا فتحت خريطة لفلسطين الشقيفة ، فابحث عن بيسان ، تجدها تحت جسر المجـــامع جنوبي بحيرة طبرية وتطل على وادي نهر الأردن ، وعلى اليسار وادي جالوت حيث كانت تقع بليدة باسم عين جالوت ، ففي هذه الناحية ومنذ سبعمائة وسبع سنوات ، التقى جيش مصر بقيادة سلطانها الملك المظفر قطز مع جيوش المغول ودارت بينهما معركة هائلة فاصلة ، وكان مجيء المغول من الشمال حيث أراضي البقاع الخصبة — بقاع العزيزي المشهورة — وهي الواقعة الآن داخل حدود الجمهورية اللبنانية . وكان مجيء جيش مصر من القاهرة إلى الصالحية إلى غزة إلى الرملة ثم عكا ثم إلى المصاف بعين جالوت .

ولما التقى الجمعان كتب الله النصر للمسلمين فسجد ملك مصر المظفر قطز شكراً لله ومرّغ وجهه في تراب الأرض ، أما قائد المغول فكان اسمه كتبغانوين ، وقد قتله بطعنة واحدة أمير من أمراء مصر هو جمال الدين أقوش الشمسي . وكتبغا اسم تتري مركب من كلمتين قيل إن معناه الثور الذي يدهشك أو يدعو للدهشة أو يثير الإعجاب ، وكان أولى أن يُسمى بالثور الهائج . ونوين قيل في معناه قائد العشرة آلاف ؛ وجندهم كما نعلم تتحرك بالآلاف وعشراتها .

وصفه الشيخ قطب الدين اليونيني فقال « رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد صفرها مثل الدبوقة ، يعلقها من خلفه بأذنه ، وكان مهيباً شديد السطوة » دخل الجامع[2] ، وصعد المنارة ليتأمل القلعة ومن فيها من جنود الإسلام ، قال : « خرج من الباب الغربي ودخل دكانا خربا وقضى أمراً والناس ينظرون إليه » ثم أردف ذلك بقوله :

ولما بلغه خروج العساكر المصرية حار في أمره ماذا يفعل ولكن حملته نفسه الأبيّة على اللقاء وظن أنه منصور على جاري عادته فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيّد الله المسلمين وثبتهم في المعركة » وجاء النصر من عنده تعالى .

وجيء بالأسرى وبينهم ابن القائد العظيم فأخذه الملك المظفر قطز وسأله : « أهرب أبوك » . فأجاب : « إن مثله لا يهرب » وعرضت القتلى فتعرف الابن على أبيه وصرخ باكياً ، فعلم المظفر بموته وسجد لله شكراً مرة أخرى .

وكان المغول يؤمنون بعبقرية كتبغا ويستبشرون به خيراً إذ هو الذي أخضع البلاد لهم من حدود فارس الشرقية إلى حدود الشام ، ولما قتل ذهب سعدهم ، وألف قوادهم الهزيمة واعتاد رجالهم الفرار . وكانوا يعتقدون بالتنجيم والعرافة ، ذكر ابن الفرات في تاريخه أن هولاكو ملكهم لما دانت له الدنيا بفتح بغداد واستيلائه على العراق وحلب وامتلاكه دمشق حدّث نفسه أن يقهر الديار المصرية ويفتحها ويطأها بجنده .

قال : إنه أحضر نصير الدين الطوسي وقال له « اكتب أسماء مقدمي الجند وانظر أيهم سيملك مصر ويجلس على تخت السلطنة » فكتب أسماءهم وحسب ودقق النظر فما ظهر له أن يملك مصر غير رجل اسمه كتبغا فذكر ذلك لهولاكو وكان اسم صهره كتبغا نوين فسلّمه قيادة جنده وسيّره لفتح مصر وكان مقتله في عين جالوت » بعد أن أدرك أيام جنكيزخان وحارب تحت قيادته وقاد جحافلهم إلى النصر طول أيام هولاكو .

وإني لأتخيل كتبغا هذا على صورة « تاراس بولبا » في القصة الروسية رجلا جباراً عملاقاً مهيب الطلعة يلبس البنطلون التتري وقد استبدل بالشاربين الطويلين المنحدرين على كتفيه باللحية الطويلة التي وصفها الشيخ قطب الدين والتي كان يعلقها على أذنيه لإرهاب الناس وقذف الرعب في قلوبهم .

ومن الغريب أن يكون بين عسكر المغول فتى لا يكاد يدرك سن البلوغ واسمه كتبغا أيضاً فيؤخذ أسيراً ويربى بقلعة مصر ويطلق عليه اسم زين الدين ، ثم يؤمّر في عهد المنصور قلاوون ، ثم يستقر في نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وأخيراً ينادى به سلطاناً فتصح النبوءة المذكورة بعد ست وثلاثين سنة من معركة عين

(١) الاستبار Hospitaliers والداوية أو الهيكليون Templiers وهم منظمات صليبية لقتال المسلمين .

(٢) هذا الجامع البعلبكي للأسف خرب اليوم وإن كانت أعمدته باقية كما هي .

جالوت التي أخذ فيها من بين الأسرى .

ويصح أن نشير هنا إلى ما ابتدعه المغول في فن الحروب وما أدخلوه من التغيير في كيفية ترتيب الجنود والزحف وتسوية الصفوف لأنه ابتداء من جينكيزخان . اتجه هؤلاء إلى ضبط الزحف بعشرات الآلاف من الرجال وإلى توجيه ضربات حاسمة من عدة جهات بطرق وأساليب لم تخطر على بال هنيبال ولا الاسكندر الأكبر وغيرهما من كبار قواد العالم . وهذا ما سنعرض له إن شاء الله في دراسة حملات جنجيز وأولاده وأثرها في التربية العسكرية بمصر وفي عقلية كبار قواد الدولة المصرية وملوكها وما أخذوه من الأنظمة عنها ، ولا أترك هذا دون أن أعطي فكرة أولى عما ابتدعه كتبغا نوين من أساليب الحروب وخداعها لأنه من تلاميذ مدرسة جنكيزخان في هذه الناحية .

فقد نقل صاحب البداية والنهاية أنه كان يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها ، فكان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الذي يليه ، فكان هؤلاء اللاجئون يدخلون في هروبهم الخوف والرعب على الناس . وإذا دخلوا البلد شاركوا الناس في أقواتهم ، فاذا حاصرهم تقصر مدة الحصار عليه لاضطراب شؤون التموين والاعاشة لدى البلد الذي يقصده ، وإذا رفض أهل البلد قبولهم وإيواءهم ساق هؤلاء المقاتلة اللاجئين عليهم لقتالهم وتلقي الضربات الأولى ، وحينما يضعف الطرفان يقذف بجنوده لاتمام الفتح.

ومن حيله التي لا يمكن أن تقرها قوانين الحرب أن يبعث إلى المدينة المحاصرة من يقول : إن ماءكم قد قلّ بعد طول الحصار وإنّا على وشك أن نأخذكم عنوة فنقتلكم جميعاً ، أما إذا فتحتم صلحاً أبقينا عليكم فيغتر أهلها بذلك ويقولون إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء فيقول الرسول لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فان اقتنعت بأنه كثير انصرفت إلى بلد آخر. فيقولون ابعث من يتأكد ، فيرسل برجال من جيشه معهم رماح مجوّفة محشوة سما ، فاذا دخلوا المدينة التي أعيته الحيل في فتحها لعظم أسوارها وقلاعها أدخلوا في آبارها وصهاريجها تلك الرماح على أنهم يقيسون أعماق المياه فيقذفون السم في قاع المياه ويكون سبباً في هلاك كل من يشرب منه .

ولو شئنا أن نعدّد أساليبهم في القتال وطريقتهم في ابتداع الحرب الخاطفة والهجوم في جبهتين تفصل الواحدة عن الأخرى مئات الأميال لتبين لنا أن آسيا هي أم الحروب وأن الأوروبيين لم يبتدعوا شيئاً جديداً . ولقد أجمع المؤرخون على مقتل كتبغا في عين جالوت ، وذكر القريزي أن رأسه حُمل إلى القاهرة ، ولذلك تعجبت حين اطلعت على حاشية للاستاذ الدكتور مصطفى زيادة تقول « إن السلطان كتبغا كان تترى الأصل وهو الذي قاد الجيوش التترية التي انكسرت على يد السلطان قطز » . إذ هناك إجماع على مقتل قائد التتار وعلى اسم قاتله وهو الأمير جمال الدين الشمسي وكان من أعيان الأمراء المصريين وأماثلهم وشجعانهم ، ذكره صاحب النجوم الزاهرة في النهل الصافي ضمن وفيات ٦٧٨ وذكره ابن كثير ضمن وفيات هذه السنة فقال « إنه أحد أمراء الاسلام وهو الذي باشر قتل كتبغانوين » . أما القريزي فيقرر وفاة الشمسي سنة ٦٧٩ وهو الأصح إذ كان آخر عمل له أنه تولى نيابة السلطنة المصرية بمدينة حلب عن السلطان المنصور قلاوون وتوفي ودفن بها كما جاء ذلك في أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، وكان قبل ذلك نائباً لسلطان مصر بمدينة دمشق وهو الذي قبض بها على الأمير عز الدين إيدمر الظاهري حينما توقف عن البيعة المنصور قلاوون ، وبدل تاريخه على الهيبة ووفرة الحرمة والوقار والنفوذ التي كان يتمتع بها لدى ملوك مصر نظراً لأياديه البيضاء في معركة عين جالوت وأن هذه الهيبة كان يتمتع بها حتى مماليكه بالقاهرة وهو غائب عنها لما كان أميراً بالشام . فقد قبض الملك الظاهر بيبرس على عدة من أمراء مصر بدمشق ولما وصل إلى جمال الدين الشمسي لم يجسر أن يقبض عليه بل تركه على حاله ومات رحمه الله في الخمسين من عمره .

فلا محل إذاً لكي تختلط شخصية كتبغا نوين مع العادل زين الدين كتبغا وإن تشابها في الاسم . وقد ورد في السلوك أنه في سنة ٦٧٨ أنعم المنصور قلاوون على أربعين من رجاله فرفعهم إلى مرتبة الأمراء وذكرهم واحداً واحداً بالاسم ، وكان منهم زين الدين كتبغا وسنجر الشجاعي وأغلب المؤرخين يقررون أنه أخذ أسيراً في عين جالوت وهو شاب وإن كان البعض اشتبه عليه نسبته إلى المنصور بقوله المنصوري فظن أنه أخذ أسيراً من يوم معركة حمص (رجب ٦٧٨) فيكون بين أخذه أسيراً وتعيينه